



هل يصنع الشرق من جديد؟ نعم. والمؤسف بل المرهون أنه لا يصنع من أهله، ولا من نخبته السياسية والثقافية المخلصة، بل من خصومه وأعدائه، بعد رحلة صعبة من التردي الاجتماعي والثقافي والسياسي يعيشها من جديد، وتفتت وحدته الجغرافية والسياسية، وغرق أطراف وأعماق منه في وحل اشتباكات طائفية وقومية .

يأتي ذلك في ظل صراع مع الاستبداد ويس من جماعات العنف والتلوّح التي اختطفت مفهوم جهاد المقاومة الشرعي من موقع كثيرة، وصارعت ذوي المبادئ وأصحاب الرؤية الوسطى من المقاومين والمجاهدين، ونزعـت هويتهم الإسلامية لأنهم لا يعتقدون غلوّها ولا يتلبـسون بوحشيتها .

هذا جزء من صورة الواقع في الشرق الإسلامي، إضافة إلى أن الثلاثي القديم المحاصر له من قرون عـدة، لا يزال يعصف به، وهو الجهل والفقـر والمرض . وهذا الحصار ارتبط كثيراً بمسيرة الاستبداد المستأنـف الذي عاد بمخالب شرسـة بعد أن نقض آمال الربيع العربي عبر النفط الخليجي والتواطـؤ الغربي، وتكافـح بعض شعوبـه الـيـوم لـتحقيق سلام نـسـبي يـضـمن مرحلة انتقالـية، للـتـهـيـة لـصـنـاعـة وـطـنـ الـحـقـوقـ وـالـوـاجـبـاتـ وـالـهـوـيـةـ الـفـكـرـيـةـ مـعـاـ،ـ وـالـتـيـ بـمـجـمـوـعـ دـوـلـهـاـ تـبـدـأـ رـحـلـةـ النـجـاحـ وـالـنـجـاةـ للـشـرـقـ الإـسـلـامـيـ الـكـبـيرـ .

كان ذلك هو الأمل الذي عـاشـهـ الـوعـيـ الـعـرـبـيـ لـيـحـقـقـ تـقـدـمـاـ فـيـ نـهـضـةـ دـوـلـهـ وـإـنـسـانـهـ،ـ وـيـنـضـمـ مـعـ الـقـسـمـ الـأـعـجمـيـ فـيـ الشـرـقـ الإـسـلـامـيـ لـمـسـيـرـةـ التـنـوـيرـ الصـادـقـ الـمـنـتـمـيـ لـهـوـيـةـ الرـسـالـةـ وـجـنـاحـيـ مـهـمـتـهـ الـكـبـرـىـ،ـ الـبـلـاغـ الـتـعـبـدـيـ وـبـيـانـ رـحـلـةـ الـخـلـقـ وـحـقـ الـخـالـقـ،ـ وـاسـتـغـلـالـ كـلـ شـبـرـ مـنـ الدـنـيـاـ لـزـرـعـ الـقـيـمـ وـتـقـدـمـ الـبـشـرـيـةـ فـيـ مـنـاحـيـ الـحـيـاـةـ وـمـسـارـاتـهـ .

لكـنـ مـنـ الـواـضـحـ أـنـ الشـرـقـ يـعـيـشـ الـيـوـمـ حـرـكـةـ اـنـهـيـارـ كـبـيرـةـ،ـ وـلـاـ يـدـرـيـ إـلـىـ أـيـنـ يـتـجـهـ،ـ فـقـدـ انـضـمـ إـلـىـ مـعـسـكـرـ الـغـربـ -ـ الـمـسـتـعـمـرـ الـقـدـيمـ -ـ نـوـعـ آـخـرـ وـصـورـةـ مـخـتـلـفـةـ مـنـ الـاسـتـعـمـارـ الـذـيـ يـبـعـثـ طـائـفـيـةـ فـيـ ذـاتـ إـنـسـانـ الـمـسـلـمـ لـيـحـصـدـ وـلـاءـ سـيـاسـيـاـ لـهـ،ـ وـيـعـقـدـ الـعـلـاقـاتـ إـسـلـامـيـةـ وـبـشـرـيـةـ فـيـ الشـرـقـ؛ـ تـسـاعـدـهـ فـيـ ذـلـكـ ثـقـافـةـ صـنـعـهـ الـاسـتـبـدـادـ لـتـحـشـيـدـ تـعـصـبـ وـطـائـفـيـةـ

أخرى لضمان أمن الحكم لا مصالح الأمة التي قُهرت من التغول الإيراني الطائفي وتقاطعه مع الغرب .

لقد أضحت رسالة النهضة اليوم في موضع صعب للغاية أمام حرائق تحتاج بالفعل لفرق إطفاء اضطرارية . وأمام غزوات جدل وصراع واضطراب وتعقيد في فهم دلالات التشريع في مساري البلاغ والنهضة، فتح الباب أمام فقه غلو مدني صب بأسمه على الشرق قبل أن يحمل السلاح عليه، كرد فعل على بأس الغرب أو حليفه الطائفي أو جزء من تكوينه وحصاد خنق الاستبداد لحريته .

لكن مهمة الفكر الإسلامي المعاصر، التي يتعاضد عليها علماء ومتقون ودعاة، ونخب مخلصة للشرق، وسياسيون من مستقلين أو في بيئه خصبة حُرّة، أو حتى من تسلي - ضرورة - لخدمة شعبه من بيت آل فرعون؛ هي ألا تقف مهمة رسالة الشرق ولا صناعته الذاتية ومواجهة صناعة الاستبداد الدولي والم المحلي، بل مواصلة الحز و الزرع ولكن على بصيرة، والخروج من مأزق رد الفعل العاطفي إلى الفعل الذاتي المنهجي المخطط لتقدم الشرق وإنسانه .

ورغم حصاد الواقع العربي والإسلامي المر، فإننا لا بد أن نذكّر بأن رسالة النهضة للشرق هي مخاض ثقافي كما هي كفاح فكري وحقوقي واستقلالي، وقد كانت هي المشاعل الأولى للنهضويين الإسلاميين الأوائل، من قبل قرنين من سقوط السلطنة العثمانية، حتى الخروج العسكري الرسمي لسايكس بيكر من جغرافية الشرق .

وعليه فإن مهمة الإنسانية المسلمة وروح نهضة الشرق، تكاملية في مسيرة الفرد الوعي وتورث لأجياله، جيلا من بعد جيل، ومن المهم أن يعي الفرد المسلم اليوم - وخاصة من جيل الشباب التربوي الإسلامي - هذه الحقيقة، ولا يهدمه الإحباط ولا يفقد ما حصله من معرفة ووعي عميق لمفاهيم الفكر الإسلامي ليتحول إلى منصة صرخ عاطفي ومنبر ضجيج بين الأحداث، لا قيمة له إلا ببعث مزيد من الاحتقان والتوتر المحيط .

إن فكرة هذا المقال، ليس إلا تذكيرا بالواجب التاريخي لموجهي الفكر وصانعي قيم واستقلال الشرق الإسلامي في المحافظة على بناء الوعي النوعي، والرشد السلوكي في صفوف الشباب والوعي الإسلامي العام الذي يخرج أبناء الشرق من هذه العنصرية المنوعة التي تفتّك بجسده أو تحول اهتماماته إلى صغار أو فروع الفروع أو نزوات مجتمعات وأفراد، تشعل المزيد من بخار الصغائن .

وهو ما يحتاج بالضرورة لنشر خارطة الطريق للوعي الإسلامي المعاصر، التي تُحسن جمع هذه الدلائل وتفكيك هذه الأحداث ورسم مهام التثقيف والوعي الإسلامي الرشيد للنهضة . ومهمة الخلاص هذه يجب أن تتشكل من تحالف كبير وواسع لحملة الفكر الإسلامي من غصونه إلى أوراقه الصغيرة؛ والبحث من جديد عن تحالفات الإنقاذ للإنسان الشرقي في كل توجهاته المذهبية والثقافية المختلفة .

إن الشرق اليوم بحاجة إلى حلف فضول كبير يلملم جراحه وانقساماته ويسد الطريق - إن أمكن - على سقوطه الكبير، أو على الأقل يؤسس لشرق جديد يصنعه هو لا خصوصه ومستثمره .

وهذه المهمة الكبيرة ليس بالضرورة كل جهدها ضمن توافقات إدارية موحدة، بل توافقات فكرية بعثت حركة الإحياء الإسلامي الأولى رسائلها وأصطف معها العلماء والبناء من قرنين، لأن رسالة الفكر والتوافق على القيم أكبر مساحة من أي مؤتمر أو مؤسسة، وإن بقيت ضرورات لمثل هذه المشاريع لتدفع بفكر النهضة لرؤى أكثر تقاربًا، وحصاد أدق تنفيذا لمستقبل الشرق الإسلامي وهوبيته ورؤيته الفكرية وطموحه التقدمي .

إن إحدى أزمات المثقف العربي، هي أن جزء من العوائق تكون أحيانا بإشكالية المشاعر الشخصية للمثقفين وتنافسهم التياري أو مصالحهم، وهو ما يجب أن يُخفف من حدته ويسعى لتأمين التعاون لمصالح الشرق وإنسانه، بين تجمعات المثقفين المختلفة .

ومن المهم تدفق مسارات واهتمامات باحثي النهضة أو مناضلي الحرية المتنوعة، وخاصة في ظل البأس الذي تعشه الأمة،

فلا يعني الحصار السياسي، وقف التعاون والتعاضد الفكري، ولا وقف صناعة الفكر الإسلامي الرشيد للشرق .

ذلك الفكر المُفاصِل لتمييع الغرب لقيمِه وهويته، والمُفاصِل في ذات الوقت لقاعدة التطرف التي تفصل المسلم عن إنسانيته، والباحث في مقاصد الشريعة عن قوة المجتمع الفاضل وحقوقه الدستورية، فضلاً عن مشتركاته مع إنسان الشرق

ومكوناته، والعمل لعهدِ السلم الذي أقرته الشريعة والمواطنة لأمةِ الشرق، يجب أن يسبق أرضية المشروع السياسي .

في إحدى أكبر أزمات الحركة الإسلامية المعاصرة، التي استثمرها خصومها للبطش بها وبأوطانها، هي أمية الثقافة الدستورية الإسلامية ومساحتها الواسعة، وحيوية الاستنباط لفترات الانتقالية للشعوب، ومعنى تحقيق الضروريات الخمس للإنسان في قواعد التشريع الكبرى .

ومن المهم للغاية أن يُصارح المجتمع التربوي الإسلامي في الوطن العربي بحقيقة الموقف العلمي وتاريخ الوعي الإسلامي، وهي أن مرحلة وفقة الصحوة في الخليج العربي التي تم تصديرها لمناطق مختلفة من الشرق، فيها جانب إيجابية وروح تدين وروحانية، لكنها – كطبيعة الحياة الاجتماعية لكل بيئة، وتدخلات السياسة – تحمل إشكاليات وتخلق قطعيات في فكر الفرد هي ليست من أصول الدين ولا رسالته .

وأن الفكر الإسلامي بأسوأه استنباطه الشرعي غير المسيّس وحركه الوجданِي والبحْثِي، أوسع بكثير من هذه المراحل، المتأثرة بقرار سياسي أو طبيعة اجتماعية خاصة كما هي في تجارب أخرى .

وأول مسار لصناعة الشرق الإسلامي بناء عقل المسلم المعاصر باستقلال فكري يفتح أمامه مسارات الوحدة وجوامع المجتمعات وفلسفة النهضة الإسلامية ومساراتها التنفيذية . تلك هي مادة الوعي لتقليل مشاريع التقسيم والتخلف الأعمية.

الجزء

المصادر: